التمثّلات الأيديولوجية للهوية الوطنية في الرواية الجزائرية المعاصرة: جدلية المقاومة والحداثة.

Ideological representations of national identity in the contemporary Algerian novel: The dialectic of resistance and modernity

د/ابتسام بوطي

الملتقى الوطني: الأيديولوجيا في الخطاب الأدبي المعاصر: بين التاريخ ولعبة المعنى

يومي/ 11 و12 نوفمبر 2025 جامعة بجاية

ملخص المداخلة:

تروم هذه الدّراسة الكشف عن تمثّلات الهوية الوطنية في النصوص الروائية الجزائرية المعاصرة، من خلال رصد الجدلية القائمة بين خطاب المقاومة –الثقافية/الفكرية- الذي تَشَكَّل في سياق نضالي مقاوم للاستعمار وممارساته، وخطاب الحداثة الذي يسعى إلى إعادة صياغة الذات الوطنية في إطار أكثر انفتاحاً على القيم الكونية وأسئلة التجديد، بوصف الرواية الجزائرية تطرح اليوم أسئلة جوهرية حول الهوية الوطنية في ظل التحولات التّاريخية والثقافية التي عرفها المجتمع الجزائري، إذ ظلت هذه الهوية على امتداد التجربة الروائية فضاءً إشكالياً تتجاذبه مرجعيات متعددة. ويبرز في هذا السياق البعد الأيديولوجي بوصفه محدِّداً أساسياً لطبيعة التمثلات الروائية للهوية، حيث تتقاطع فيه الذاكرة الجماعية الموروثة عن حقبة الاستعمار مع تطلعات الفرد والجماعة نحو بناء حداثة ثقافية وفكرية.

الكلمات المفتاحية:

أيديولوجيا- خطاب- هوية- وطنية- مقاومة- حداثة.

Abstract

This study aims to reveal the representations of national identity in contemporary Algerian novels, by examining the dialectic between the discourse of resistance – cultural/intellectual – which was formed in a context of struggle against colonialism and its practices

The discourse of modernity, which seeks to reformulate the national identity within a framework more open to universal values and questions of renewal, is

reflected in the Algerian novel today, which raises fundamental questions about national identity in light of the historical and cultural transformations that Algerian society has experienced , Throughout the novelistic experience, this identity has remained a problematic space, pulled in different directions by multiple references. In this context, the ideological dimension stands out as a fundamental determinant of the nature of the novelistic representations of identity, where the collective memory inherited from the colonial era intersects with the aspirations of the individual and the group towards building a cultural and intellectual modernity

Keywords:

Ideology - Discourse - Identity - Nationalism - Resistance - Modernity.

Résumé :

Cette étude vise à mettre au jour les représentations de l'identité nationale dans les romans algériens contemporains en examinant la dialectique entre le discours de résistance – culturel/intellectuel – qui s'est formé dans le cadre d'une lutte contre le colonialisme et ses pratiques, et le discours de la modernité, qui cherche à reformuler le soi national dans un cadre plus ouvert aux valeurs universelles et aux questions de renouveau

Le roman algérien actuel soulève des questions fondamentales sur l'identité nationale à la lumière des transformations historiques et culturelles qu'a connues la société algérienne, car cette identité est restée, tout au long de l'expérience romanesque, un espace problématique tiraillé dans différentes directions par de multiples références.

Dans ce contexte, la dimension idéologique apparaît comme un déterminant fondamental de la nature des représentations narratives de l'identité, où la mémoire collective héritée de l'époque coloniale se mêle aux aspirations de l'individu et du groupe à la construction d'une modernité culturelle et intellectuelle

Mots-clés :

Idéologie - Discours - Identité - Nationalisme - Résistance - Modernité.

تقديم:

تعدّ مسألة الهوية الوطنية اليوم من أكثر القضايا الثقافية والفكرية حضورًا وإثارةً للنقاش ضمن الخطاب الأدبي الجزائري، لما تنطوي عليه من أبعاد تاريخية وسياسية ورمزية تمسّ جوهر الوعي الجمعي وتشكّل الذات الوطنية في تحولاتها المستمرة، فمنذ فترة ليست بالقصيرة وجد الأدب الجزائري

نفسه في مواجهة هذا السؤال الجوهري الذي يتغلغل في صميم وجوده وكينونته، محاولًا إعادة بناء الذات الجزائرية وترميم هويتها وإثبات انتماءها في ظلّ تحولات اجتماعية وثقافية عميقة، ضمن هذا السياق، برز الخطاب الروائي الجزائري بوصفه فضاءً رحبًا للتعبير عن تمثّلات متعددة للهوية، تتأرجح بين نزعة المقاومة التي تستمد مشروعيتها من الذاكرة النضالية ضد الاستعمار، ونزعة الانفتاح التي تسعى إلى تجاوز الانغلاق والانفتاح على الآخر الإنساني والثقافي.

إنّ دراسة التمثّلات الأيديولوجية للهوية الوطنية في الخطاب الروائي الجزائري تقتضي مقاربةً تتجاوز البعد الوصفي نحو تفكيك الأنماط الفكرية الكامنة في النصوص، واستكشاف كيفية اشتغال الأيديولوجيا داخل البنية السردية بوصفها أداة لإعادة إنتاج الوعي الوطني أو مساءلته، فالرواية الجزائرية اليوم أصبحت مجالًا للتفكير في الذات، وفي علاقتها بالآخر، وفي حدود المقاومة ومحاولات الانفتاح معًا.

وانطلاقًا من هذا التصوّر، تسعى هذه المداخلة إلى مقاربة الهوية الوطنية وتمثّلها الأيديولوجي من خلال تحليل البنى الخطابية والرمزية التي أنتجتها –وما تزال- الرواية الجزائرية، وعن الكيفية التي يتجلّى بها الصّراع بين الانتماء والاندماج، والذاكرة والانفتاح، داخل الخطاب الروائي الجزائري.

وتنطلق الإشكالية المركزية من التساؤل الآتي:

كيف تُعيد الرواية الجزائرية تمثيل الهوية الوطنية ضمن جدلية المقاومة والانفتاح؟

وما الأنساق الأيديولوجية التي تحكم هذا التمثيل وتوجّه خطابه الجمالي والفكري؟:

تهدف المداخلة إلى:

1- الكشف عن التمثلات الأيديولوجية للهوية الوطنية كما تجسّدها الرواية الجزائرية في مراحلها المختلفة.

2-تحليل جدلية المقاومة والانفتاح في المتن الروائي الجزائري من حيث الدلالات السردية والفكرية.

3- إبراز دور الخطاب الروائي في إعادة تشكيل الوعي الوطني ومساءلة الثوابت الثقافية والاجتماعية.

أولا:الثورة كمكوّن أيديولوجي في الخطاب الجزائري:

1-1-الأيديولوجيا كمقاومة ثقافية:

في بادئ الأمر يحيلنا الحديث حول أيديولوجيا الخطاب إلى حتمية مواجهة ماهية المصطلح –على اتساع مفاهيمه وكثرتها- غير أننا سنأخذ منها ما يفيد هذه الدّراسة ويكشف دورها في بناء المنظومات الثقافية المعاصرة، فبيان دال الايوديولوجيا وممارساتها ضمن الخطابات –الغربية والعربية على حد

سواء- سيفتح أفق القارئ المتمعن لفهم النصوص وتوجهاتها ومن ثَمَّ تمركزها، إنّ مصطلح **الإيديولوجيا Ideology** كما يطرحه غرامشي يُفهم على أنه "مجموعة من الأفكار ، والممارسات والمعاني التي –في حين أنها ترمي إلى أن تكون حقائق كونية- تشكّل خرائط للمعنى تدعم سلطة طبقات اجتماعية خاصة، وهنا تكون الأيديولوجيا غير معزولة عن النشاطات العملية للحياة، بل توفر للناس قواعد التوجيه العملي والسلوك الأخلاقي المتجذرين في الملابسات اليومية" **1** ومن ثَمَّ فالإيديولوجيا من هذا المنطلق لا يمكن أن تكون بمنأى عن الحياة الواقعية للإنسان، وهي تعمل –بشكل من الأشكال- على جمع الأفراد وتكوين الجماعات وإرساء الروابط الاجتماعية التي تعمل فيما بعد على ضبط التّشكيلات والأسس للمجموعات، كذلك " تُفهم على حد سواء كتجربة معيشة وكمجموعة من الأفكار المنهجية التي يتمثل دورها في تنظيم وربط كتلة العناصر الاجتماعية المتنوعة –تعمل كاسمنت اجتماعي- في تكوين الكتل المهيمنة والكتل المضادة للهيمنة"**2** تمثّل هذه الأفكار أحد أهم العناصر المُكوِّنة للنظام الاجتماعي (القيم،الأعراف، المبادئ) التي من شأنها فيما بعد ممارسة السلطة على الأفراد وتحديد الكتل الجماعية (الموالية والمضادة)،وعلى الرغم من أن الإيديولوجيا في مجمل معانيها تنتهج كتلة من الأفكار تُشكل عبرها بنية متجانسة ومترابطة من المعتقدات والرؤى "فإنها غالبا ما تظهر كمعان متشظية للمعنى المشترك المتأصل في مجموعة متنوعة من التمثيلات، وضمن هذا النموذج للمعنى المشترك والثقافة الشعبية فإن كلاهما يصبح مواقع حاسمة للصراع الأيديولوجي"**3** وهي إزاء كل ذلك تُمثِّل عنصرا ركيزا داخل المجتمعات، وتتسع لتشمل كافة المجالات (السياسية،الاقتصادية، الثقافية)

إن الإيديولوجيا –رغم حداثة المصطلح وتأخر بروز الحقل- متجذرة داخل التكوينات الإنسانية منذ نشأتها الأولى، لقد أخذت معانٍ شتى وأشكال مختلفة غير أنها تعمل دائما ضمن الجماعات وتؤثر على الأفراد والانتماءات ومن ثَمَّ تدخل في تشكيل الهويات، وتبعا لذلك يُصبح من الصعب فصل الإيديولوجيا عن نواحي الحياة الاجتماعية، ولكن رغم أن للإيديولوجيا تاريخ قديم قِدم وجود الإنسان على هذه الأرض وقد أثّرت في توجهاته ومذاهبه، بيد أنها –حسب رأينا- لا يمكن ممارستها من قبل الأفراد العاديين، فهي تحتاج أثناء ممارستها إلى وعي وإدراك من طرف الفرد أو الجماعة وهو ما يذهب إليه كثير من الباحثين، ذلك في إدراج الإيديولوجيا وممارستها ضمن الثقافة النخبوية وتصنيفها كفعل واعٍ يحتاج إلى مثقفٍ مُدركٍ لأفكاره ورؤاه، بل ويسعى إلى طرحها وإيصالها لأغراض شتى (نحللها ضمن هذه الدّراسة)

ترتبط الإيديولوجيا إذن ارتباطا وثيقا بالأدب بوصفه شكلا من أشكال الثقافة، تتكون معه وتتمثّل فيه، إنّ تيري ايغلتون حسب سليم حيولة " لا يرى فرقا بينهما ولا يقيم فصلا بينهما، بل إنّه وتماشيا مع التّطور الفكري الذي مرّ به، وهو تطور الماركسية نفسها، فإنّه حين يتحدث عنه، فهو يرى أن "الأدبَ بالمعنى الذي ورثناه للكلمة هو أيديولوجيا، وتربطه أشدّ العلاقات صميمية بمسائل السّلطة الاجتماعية "4

إذا انتقلنا للحديث عن الإيديولوجيا في الخطاب الروائي الجزائري فإننا نبدأ من الروايات الجزائرية التي كتبت بالفرنسية، بل يجوز لنا العودة قبل ذلك بكثير، فنبدأ مثلا برواية **"الحمار الذهبي"** لأبوليوس التي عدّها كثير من الباحثين نصا مقاوما فقد اتّخذ من أسلوب السخرية ووقائع العجائبية وسيلة لفضح السلطة الرومانية ومناهضتها وإبراز خصوصية الجماعة وقتذاك، كذلك النص الروائي المكتوب باللسان الفرنسي فإننا نعدّه بلا ريب خطابا ثقافيا –على الرغم من كلّ التصنيفات حول انتماءه- مُوَجَّها إلى الآخر/ الفرنسي، مناهضا ومقاوما له، يكفي في ذلك البداية التي افتتح بها محمد ديب نصه **"الدار الكبير"** وتصويره للحالة المزرية التي وصل إليها الشعب الجزائري بسبب الاستعمار **"هات قليلا مما تتأكل...قال عمر ذلك..وهو يقف أمام رشيد برى...ولم يكن عمر وحيدا فإن شبكة من الأيدي قد امتدت تلح كل منها في طلب نصيبها من الصدقة...وأنا...وأنا...ارتفعت الأصوات متوسلة"5** ومن ثَمَّ فالخطاب الروائي الجزائري المكتوب بالفرنسية يُعدُّ –حسب رأينا وكثير من الباحثين- خطابا أيديولوجيا اتكأ إلى أحد أهم العناصر الأيديولوجية أهمية (السياسة) فاتّخذ من الثورة التحريرية ركيزة أساسية ضمن خطاباته، لقد جاءت الكتابة بالفرنسية حول الثورة ومنطلقا منها فصورت كل ما تحمله من وقائع فظيعة وأحداث دامية وكلوم جسدية ونفسية شكّلت بذلك إيديولوجيا خطابية واجهت السلطة الاستعمارية المهيمنة حينذاك ثقافيا وفكريا وسعت إلى ترميم الهوية الوطنية وترسيخها عبر تصوير المجتمع الجزائري بعاداته وتقاليده وقيمه الدينية والثقافية وخصوصيته التي حاول الاستعمار طمسها من خلال الممارسات الامبريالية المنتهجة، فجاءت ثلاثية محمد ديب لتصف حالة الشعب المستضعف ولتسمع من العالم من كان به صمم، و**"نجمة"** لكاتب ياسين والتي عدّها كثير من الباحثين والنقاد من بينهم السعيد بوطاجين أنها تصوير حقيقي للهوة التي وقع فيها الشعب الجزائري جراء الهيمنة والممارسات الاستعمارية التي تغلغلت في عمق المجتمع، كذلك نجد روايات مولود فرعون (**الدروب الوعرة**) وروايات مالك حدّاد وغيرها من الروايات التي مجدّت الثورة ورجالاتها، فاتّخذت من لغة المُستعمِر أداة لرفع صوت المُستعمَرِ.

يذهب سليم حيولة في كتابه استراتيجيات النقد الثقافي إلى أن " الأدب يحمل الإيديولوجيا، إيديولوجيا الكاتب أو الثّقافة التي يمثّلها بطريقة لا يمكن فصله عنها، بل إنّ الأدب نفسه إيديولوجيا يقف مقابل إيديولوجيات أخرى"6 لهذا فالروايات التي اتخذت من الفرنسية سلاحا ضد الهيمنة الاستعمارية وردّا على كل خطابات الكولونيالية الغربية من خلال الحديث عن الثورة ومسوغاتها وأهدافها التي ترنو إلى حرية الشعوب المستعمَرة وتعرية الوجه الحقيقي للشعوب المستعمِرة وأهدافها المخبوءة تحت شعار تنوير الإنسان ونشر المعرفة، أسهمت فعليا في ظهور أدبٍ إيديولوجيّ مُقاوم ومقوض لكل ما جاءت به المنظومة الفكرية الغربية منذ ظهور كتابات الرّحلة وما صوّرته من زيف وتضليل، ولا يسعنا المقام هنا لذكر كل الروايات التي صوّرت الثورة الجزائرية وعبّرت عن روح المجتمع الجزائري، فقد مثّلت فيها الثورة مرجعا أيديولوجيا فاعلا ودافعا أساسيا للسرد.

لقد "أصدر إيغلتون كتابه "النقد والإيديولوجيا" في عام 1976 يشير فيه إلى بداية عهد جديد، يتميّز بالخروج عن القراءة الجمالية إلى البحث عن الأنساق المخبوءة ومحاولة كشفها، أو العودة –بشكل من أشكال الماركسية- إلى تناول الإيديولوجيا."7 في حقيقة الأمر أن الثورة الجزائرية شكّلت مجموع من الأنساق الظاهرة والمضمرة ضمن النصوص، فالثورة عدّت –وما تزال- مركزا رئيسيّا وسببا جوهريا ضمن الخطاب الجزائري، ذلك لأنها مثّلت بؤرة الحكي لدى الكتّاب وموطن الذاكرة داخل النصوص بشكل لا يمكن لأي ناقد أو باحث أو مهتم بالأدب الجزائري تجاوزه أو إنكاره، ولهذا فالرواية الجزائرية باللسان الفرنسي حينذاك قدّمت النموذج المنهجي للخطاب الثقافي الذي وجّهته أيديولوجيا إثبات الهوية وترسيخ انتماء الذات الجزائرية وإعلاءها مُقابل أي خطاب آخر حاول تقزيمها أو نبذها أو زيّف حقيقتها، لم ينحصر هذا الخطاب في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وإنما تعدّاه في ذلك إلى الرواية المكتوبة باللغة العربية –بعد الثورة- وهي كثيرة نذكرها على رأسها رباعية "الدم والنار" لعبد الملك مرتاض التي استعاد فيها الكاتب حكايات التضحية والصراع من أجل الحرية.

2-1 – ديناميكية الثورة في الخطاب الجزائري...

لقد شهد الخطاب الجزائري ولا سيما الخطاب الروائي بوصفه فضاء رحبا يتسع لمختلف الأفكار وتباين الرؤى، تحوّلا نوعيا فمن التّركيز على تصوير الأحداث المأساوية ومعاناة الشعب إبان الاستعمار إلى الانخراط في نقد مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث انتقل الكتّاب من التوثيق البطولي للثورة إلى تفكيك خطابها السياسي والاجتماعي، مسلّطين الضوء على الهوة بين المبادئ الثورية والواقع الفعلي بعدها، فلم يعد ينظر إلى الثورة بوصفها حدثا مقدّسا أو منجزا مطلقا، بل باعتبارها مشروعا إنسانيا

وسياسيا يحتاج إلى مساءلة ومراجعة، في ظل تبني الكتّاب للمنظور الاشتراكي الذي أفرزته تناقضات جديدة في المجتمع والدولة.

ولأن الإيديولوجيا تُمثّل –كما سبق ذكره- مجموعة من الأفكار والمفاهيم الفردية أو الجماعية وهي بصورة أوضح تعبير عن رؤى ومعتقدات دينية أو سياسية، شهدت الرواية الجزائرية مسارا جديدا مع نصوص الطاهر وطار في رواياته اللاز و الزلزال والشهداء يعودون هذا الأسبوع، وروايات رشيد بوجدرة وأهمها الحلزون العنيد، حيث تُعلن هذه النصوص عن ميلاد خطابٍ أيديولوجي تبناه مجموعة من الكتّاب، مُنطلقه الثورة، وما حملته أفكار الكتّاب إزاء ما حققته هذه الأخيرة وتعبيرا منهم –بشكل ظاهر أو مضمر- عن خيبة الأمل وفشل إنجازاتها المنشودة، ما دفع بعديد من الكتّاب إلى محاولة تمرير توجهاتهم الأيديولوجية –الاشتراكية/الشيوعية- عبر الخطابات الأدبية التي كانت حينذاك –وما تزال- الوسيلة الأنجع لطرح أفكار وقناعات المثقفين الفاعلين في المجتمع، على نحو ذلك يقول رشيد بوجدرة في روايته الحلزون العنيد: "**الجمعة يوم ذلق، لا ينقطع فيه المؤذن عن الآذان أنا من الإخلاص للدولة بحيث لا يسعني الإيمان بالله**"8

لقد مثّلت الرواية الجزائرية إذن مذ بداية تبلورها جنسا أدبيا بارزا أخذ يُصوّرُ قضايا الفرد الوجودية، ويُعبّر عن أفكاره على تباينها، يُناقش المفاهيم ويطرح تساؤلات جوهرية، فكانت النصوص بذلك تبني خطابا مغايرا ومتمايزا عما يكتبه الآخر لتُشكل هيكلا خطابيا إيديولوجيا أساسه الخصوصية الثقافية، وركيزته ثورة الإنسان ومقاوماته المتعاقبة منذ وجوده على هذه الأرض، كذلك لا يُمكننا تجاوز فكرة الوعي، وعي الذات بنفسها مُقابل أي وجود آخر، ويظهر هذا الوعي عبر الممارسات التي تُجذِّر كينونتها، الوعي بالذات يُمثل معيارا أساسيا لبناء أيديولوجيا ثابتة تبرز جليا من خلال الثقافة –مجالات الفن- وتبعا لذلك تُشير ليندا هاتشون في كتابها شعرية ما بعد الحداثة إلى أن الخطاب النقدي الرّاهن "قد انتقل من فكرة الماركسية الأسبق حول الإيديولوجيا بوصفها وعيا زائفا أو بوصفها نظاما من الاعتقاد الوهمي إلى الفكرة المغايرة للإيديولوجيا بوصفها سيرورة عامة لإنتاج المعنى، بعبارة أخرى توجد كل الممارسات الاجتماعية (بما في ذلك الفن) بواسطة الأيديولوجيا وفيها"**9**

ما فتئ الخطاب الروائي الجزائري يسرد الثورة ويرسم أبعادها فشكّل بذلك زاوية أيديولوجية قاوم عبرها خطابات الآخر، في الحقيقة أن الثورة التحريرية لم تكن مجرد خلفية تاريخية ضمن النصوص الروائية الجزائرية، بل غدت مكونا إيديولوجيا فاعلا أسهم في تشكيل الخطاب وبنية نظامه كما ساهمت في توجيه مضامينه وتحديد رؤاه الفنية والفكرية، لقد أضفت الثورة على الرواية بعدا فنيا

وبعدا نضاليا عزّز من قيمتها الأدبية والتاريخية، ورسّخت حضورها كمرجع مركزي في التعبير عن الوعي الوطني والهوية الجماعية وهو ما سنعرج على تناوله في ما سيأتي هذه الدّراسة.

ثانيا: الهوية الوطنية بين الإرث التاريخي وتحولات العصر:

1-1- الخطاب الروائي الجزائري ورحلة البحث عن الهوية...

إن التباين الحاصل داخل الدّراسات الثقافية والفلسفية حول بيان ماهية الهوية وضبط أبعادها ومكوّناتها، سببه الأول راجع إلى كون الهوية مصطلح متحوّل وعصيّ، وهو –إن جاز لنا قول ذلك- مصطلح مراوغ غير مستقر، يتغيّر بتغير السياقات (التاريخية، الاجتماعية...)، فالحديث حول الهوية سيُحيلنا حتما إلى الاتجاه نحو الخصوصيات المشتركة للمجتمعات خاصة تلك التي تجتمع وتلتف حول مقومات أساسية ومسلمات تحتكم إليها هذه الجماعة الإنسانية، وفي أي مجتمع تمثل العادات والتقاليد والأعراف المقوم الأساسي الذي يُحَكِّم سلوكيات وأفعال الأفراد داخل هذا المجتمع إضافة إلى مقومات أخرى تُمثلها اللغة والدين والتاريخ المشترك والمكان بطبيعة الحال، عطفا على ذلك فالهوية الوطنيةNational identity في أبرز مفاهيمها هي "شكل من أشكال التماهي التخيُّلي مع الدولة القومية، ويُعبِّر عنها من خلال الرموز والخطابات، ومن ثمَّ، فالأمم ليست مجرد تكوينات سياسية، بل هي أيضا أنظمة من التمثيلات الثقافية...من خلالها تكون الهوية الوطنية مستنسخة باستمرار عبر الفعل الخطابي، ولأن الثقافة ليست كيانات جامدة، بل هي تشكّلٌ عبر ممارسات متغيرة تعمل على عدة مستويات اجتماعية مختلفة"**10** ومن ثمّ فالثقافة تُمثّل إحدى الأوجه الرئيسية للهوية، تتكون فيها وتتجلى من خلالها، ولهذا عدّ كثير من الباحثين الثقافة والفن بشكل خاص عنصرا ركيزا داخل العملية التركيبية للهوية، وهو إذ ذاك مرتبط بإيديولوجيا الجماعات، لصيق بالخطابات التي عبرها تُعرف وتحدد الكيانات الاجتماعية والسياسية فـ" للفن والإيديولوجيا تاريخا طويلا من التفاعل، والاستعادة récupération المتبادلين الذي ينتقص من الفصل الإنساني والشّكلاني الأحدث بين الاثنين"**11**

لذلك من يتعمق في الخطاب الجزائري سيواجه بلا شك مسارين أو لنقل توجهين لإيديولوجيا الهوية ضمن هذا الخطاب، أما التّوجه الأول فهو الذي ظهر مع الكتّاب الفرانكوفونيين les écrivains francophones نذكر منهم رشيد بوجدرة في روايته (-L'nsolation- les Mille et une La Répudiation années de la nostalgie...) وهي أعمال تجسد الصّراع الهوياتي بين الحداثة والتقليد وترسم حالة التشظي التي يعيشها الأبطال، روايات بوجدرة تحوي حكايات التّمرد على المجتمع والتقاليد السائدة

حينا، وتستحضر التّاريخ والذّاكرة لمساءلتها ونقدها حينا آخر ، ويخلط بوجدرة بين الواقعي والأسطوري في نقد الهوية الجزائرية، كذلك يطرح أفكارا أيديولوجية أهمها (تفكك القيم السياسية والاجتماعية، ربط الفوضى السياسية بالاضطراب النفسي والفكري الذي يعانيه الإنسان الجزائري، التمرد على القيود الأخلاقية....)

نجد كذلك الكاتب ياسمينة خضرا في رواياته le privilége du phénix- -ce que le jour doit à la nuit... حيث يطرح خضرا أسئلة حول (الهوية والتّطرف والتحولات السياسية، والخلفية الاجتماعية والسياسية في الجزائر..) فيعيش البطل حالة من الاغتراب ويواجه صراعا هوياتيا، وكفاحا في رحلة البحث عن الذات والوطن، وعلى الرغم من أن الخصوصية الثقافية تبرز جليا ضمن هذه النصوص غير أن الكاتبين (بوجدرة وخضرا) يشتركان مع عديد من الكتّاب الفرانكوفونيين في الانطلاق من أيديولوجيا تطرح فكرة الاندماج مع الآخر وإمكانية العيش معه وقابلية الذوبان فيه مُقابل التلاشي الثقافي والهوياتي، ومن المؤكد هذا التّوجه الأيديولوجي أن لم ينحصر في الكتّاب الفرانكوفونيين بل تبنّى هذا التّوجه عديد من الروائيين الجزائريين الذين يكتبون باللغة العربية، وتبعا لذلك يمكن للإيديولوجيا سلك مسار آخر، يتّخذه الكاتب انطلاقا من مجموع أفكار ورؤى تبناها تحت ظروف مختلفة على غرار (التنشئة، ثقافة اللغة، التأثر بمفاهيم معينة، أو لأغراض خاصة...) يُحاول الكاتب من خلال نصوصه تبرير هذه الأفكار وتقديمها بأشكال مختلفة وتحت مسميات وضعها لتكون صحيحة ومتماشية مع المفاهيم الجماعية، بيد أن هذه النصوص –حسب رأينا- تُنتج خطابا مغايرا للنظام الخطابي المشترك، ونجد أبرز الكتّاب الجزائريين واسيني الأعرج الذي فتح باب العودة إلى الذّاكرة الجمعية السردية والنهل من تراثها عبر رواياته (نوّار اللوز، البيت الأندلسي، كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد....)حيث يوظف الأعرج التّاريخ والأسطورة ليقرأ الواقع ويناقشه ومن ثمّ فهو يستخدم –حسب كثير من النقاد- التعدد الصوتي ليطرح الأفكار ويُعدّد الرؤى ما يُسهم في طرح أيديولوجيا التعايش والانصهار مع الآخر (انطلاقا من مبدأ ذاكرة مشتركة)، إن استخدام الإيديولوجيا في الخطاب الأدبي لأغراض خاصة على نحو الخطابات المرتبطة بالسلطة والهيمنة إنما يوحي بارتباط الأفكار وإذعانها للقوة، وهي من خلال خطاباتها تقدم نوعا من التبرير لتلك الأفكار ومجموع مسوغات تُسهم في تحديد فئات اجتماعية معينة.

في رواية "**اختفاء السيد لا أحد**" لأحمد طيباوي يجمع الكاتب بين السرد التشويقي والفلسفة الاجتماعية، بين الحزن والسخرية، بين الواقع والرمز، صحيح أن الرواية تصوّر الإنسان المهمش الذي

يشعر بأنه لا أحد، لكنها تطرح في عمقها أسئلة وجودية حول الهوية، الانتماء، الوجود والحرية إنها – حسب رأينا- دعوة للقارئ كي يرى الاختفاء ليس فقط كحدث خارجي، بل كأثر داخلي، كحالة نفسية ومجتمعية، تُفتتح رواية "السيد لا أحد" بجملة **"الرجل الذي خلع وجهه ورحل" 12** وهي –إن أمكننا القول- دلالة رمزية يمكن تفسيرها وفق عدّة مستويات أهمها التّحول أو الانسلاخ أو الفقدان الهوياتي، إذ يحمل الوجه في اللّغة والأدب رمز الهوية أو الذات/الكينونة، وخلع الوجه يكون بالتجرد من الذات أو رفضها أو الانسحاب منها، وفي موضع آخر يقول الكاتب على لسان البطل لا أحد: **"صور أمي في ذاكرتي غير واضحة، بعيدة ومشوشة، ولا عاطفة تشدني إليها، أحيانا أفكر أني ولدت دون أم، من ظهر أبي لما سقى بمائه التراب" 13** إذا تعمقنا في الدّلالة الرّمزية لهذا المقطع فإننا بلا ريب نفهم أن الأم في الأدب كثيرا من ترمز إلى الوطن/الجذر، ما يعني الانقطاع عن الهوية أو ضياع الأصل، لتكون الوجود وأسئلة الهوية الانشغال الأول والاهتمام الجوهري ضمن الخطاب الروائي الجزائري الراهن.

في كتاب مشكلة الثقافة لعالم الاجتماع مالك بن نبي والذي يعرض فيه مفهوم الثقافة والعناصر المشكلة لها، يذهب بن نبي إلى أن الثقافة في مجملها هي مجموع السلوكيات (من عادات وتقاليد وأعراف وقيم) اجتماعية -محيط المعنوي ومحيط المادي- يتبناها الفرد منذ نشأته فتتكون في داخله وتبرز لاحقا من خلال سلوكياته، ومن ثمّ تعمل الثقافة لدى الفرد الواعي (المثقف/السياسي/ الكاتب...) على تشكيل انتماءه الذي يُحدد فيما بعد أيديولوجيته، فتظهر في علاقته التبادلية مع المجتمع وتُشكل هويته التي تغدو منبع فكره ومرجع رأيه وبؤرة حكيه – بوصف الكتّاب أفرادا داخل المجتمع ميزتهم الفاعلية- لهذا أصبحت الهوية Identity "مقولة مركزية داخل الدراسات الثقافية خلال فترة التسعينيات، وهي مفهوم يتعلق بالأوصاف الثقافية للأشخاص...كما تهتم بالمماثلة والمغايرة... فتعد الهوية إنشاء ثقافيا لأن المصادر الخطابية التي تكوّن مادية الهوية تعدّ مصادر ثقافية بطبعها، وبشكل خاص فنحن مكلون كأفراد داخل عملية اجتماعية يمكن فهمها عادة كمثاقفة**"14**

في الحقيقة إن فكرة فصل الأدب عن الأيديولوجيا لا يمكن استيعابها داخل الدراسات الثقافية، فمن الصعب فصل صفات الفرد الثقافية المكتسبة –بوعي ومن غير وعي- عن الفعل الخطابي الذي بدوره يُمثل الإنتاج الفكري/الأيديولوجي للكتّاب داخل عملية متكاملة تبادلية، وعلى هذا النحو " يرفض – ايغيلتون- فكرة ألتوسير التي ترى أنّ الأدب يستطيع أن يتباعد عن الايديولوجيا، فإنّه يؤكد إعادة صنع معقّدة للخطابات الأيديولوجيا الموجودة بالفعل، ومع ذلك فإنّ النّاتج الأدبي ليس مجرد انعكاس لخطابات أيديولوجية أخرى سابقة عليه، بل هو إنتاج متميّز للأيديولوجيا، ولهذا السبب، لا يهتم النّقد

بقوانين الشكل الأدبي وحدها أو بالنّظرية الايديولوجية، بل يهتم بما يسميه "قوانين إنتاج الخطابات الأيديولوجية" من حيث هي أدب."15

1-2-إعادة كتابة الذّاكرة كرمز للمقاومة والاستمرار...:

تَطرَح الخطابات الأدبية عبر مجموعة من الرموز والممارسات الثقافية أو بطرق أخرى مختلفة فكرة الهوية الوطنية فتعبّر عنها وتُمثّلها، ومن ثَمّ يمكن فهم الفئات الاجتماعية المختلفة من خلال الخطابات الثقافية –التمثيلات- فتشكّل الهوية الوطنية مكوّن إيديولوجي لخطاب ثقافي/أدبي لأمة ما، وفي ظروف تاريخية معينة تُتَّخذُ هذه الإيديولوجيا لغرض بناء نظام خطابي/ثقافي من شأنه مواجهة باقي الخطابات ومُناهضتها ومُقاومة كل محاولات التقويض والهدم الممارسة عليه ومن خلاله إذن تدرَك الهوية الوطنية.

إن فكرة الأيديولوجيا "اليوم، توحي في أحسن الأحوال "بربط وتبرير الأفكار" جميع الفئات الاجتماعية، وهذه الوظيفة الربطية للأيديولوجيا المعيشة لا تمتلك أي إحالة لتصور تمثيلي للحقيقة، وبينما لا يشك الفاعلون في معتقداتهم التي وضعوها أنهم وضعوها لتكون صحيحة، فإن التقاسم المشترك للمعتقدات هو الذي يربطها وليست الحقيقة التمثيلية أو زيفية الأفكار." 16

في رواية "خريف تيلّة" للكاتب الطاهر مرابعي تتبدّى الهوية بأبعادها المتعددة، وتغدو ماثلة بوضوح أمام القارئ المتعمق في النص ودلالاته، فنجد الكاتب يقول على لسان أحد أبطال الرواية: "**وصلتُ مبكرا إلى باريس، أخيرا أدخُلها باسمي وهويتي... أنا العربي ولد سليمان، ابن عرش آيث يعلى، عالم الفيروسات الجزائري**..."17

في الخطاب الجزائري الرّاهن حيث يتجلى وعي ما بعد إستعماري يعيد صياغة العلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، فدخول بطل الرواية إلى باريس باسمه وهويته يرمز إلى استعادة الاعتراف والفاعلية بعد زمن من التهميش والتغييب والقهر الاستعماري، تتحول باريس من مركز للهيمنة إلى فضاء للاعتراف بالذات الجزائرية، التي لم تعد تعرّف بوصفها تابعة، بل كذات علمية منتجة للمعرفة.، وهو يؤكده مرابعي في الرواية ذاتها بقوله **"في الحقيقة أنا لا تهمّني الألقاب كثيرا ولا قليلا، ولكن عندما دخلتُ فرنسا أحسستُ برغبة كبيرة في حمل هذه الصفة"18**

يشكّل التداخل بين ولد سليمان وابن عرش آيث يعلى تمثيلا للهجنة الثقافية التي تميّز الهوية الجزائرية، إذ تتقاطع فيها العروبة والأمازيغية ضمن مشروع وجودي مقاوم للطمس، أما تعريف الذات

بوصفها عالم فيروسات جزائري فيشير –حسب رأينا- إلى انتقال أدوات القوة من المجال السياسي إلى المجال المعرفي، حيث يصبح العلم وسيلة لإعادة بناء صورة العربي في المخيال الغربي، ومن ثمَّ فإن النص يؤسس لخطاب هوياتي حديث يقوم على الاعتراف، والمعرفة والمغايرة ويعبّر عن تحول رمزي من الهامش إلى المركز دون التنازل عن الأصالة الثقافية.

يصل مرابعي في هذا النّص إلى مواجهة الآخر/الفرنسي، فيستحضره ليقزّمه في مقابل إعلاء الذات الجزائرية /العربية، في تحدٍ بادٍ واعتزاز مُلفِتٍ يقول أثناء ذهابه في بعثة علمية من بريطانيا إلى باريس **"لن أُخَصِّص وقتا للسياحة خارج أشغال الملتقى وجلسات المخابر العلمية التي جئتُ لأجلها، ليس ذلك تكبّرا ولا هيبة منّي، ولكن لأن شعب هذه المدينة ليس غريبا عنّي، فقد حدّثني أبي عنه كثيرا، أنا لا أعرف شعب هذه المدينة فقط، بل حتى بناياتها معروفة عندي، فقد شاهدتُ مثلها في وهران وشاهدتُ ما هو أرقى منها في جميلة وتيمقاد، ثم إن معظم ما هو مشيّد هنا تم بناؤه بسواعد الجزائريين، رائحة الوطن تملأ الجوّ وعرق شعبه يتصبّب من جدران هذه العمارات.."19**

من خلال ما سبق من الحديث حول الهوية الوطنية وعلاقتها بالإيديولوجيا، نَعدُّ مسألة الهوية اليوم من أبرز المحاور التي انشغل بها الخطاب الأدبي الجزائري، إذ تداخلت فيها الاعتبارات التاريخية والثقافية والسياسية، ثم إن هذه السياقات أسهمت بشكل أو بآخر في ظهور فئتين –وربما أكثر- من الكتّاب الجزائريين، أما الأولى فاتّخذت من الهوية الوطنية أيديولوجيا مركزية في نصوصها، تذهب في ذلك إلى أن الأدب وسيلة حتمية وفاعلة للحفاظ على الذاكرة الجماعية، وإثبات الانتماء الوطني ومقاومة كل أشكال الاستلاب والهيمنة، ويبدو أن هذا التوجه هو انعكاس لمراحل الصراع التي عاشها الإنسان الجزائري منذ تواجده على هذه الأرض، وسعيه الدائم من أجل الدّفاع عنها ومحاولاته للتحرر من الغزاة وفي ذلك ترسيخ للهوية والأصالة وتكريس لمبدأ السيادة الثقافية ذات الخصوصية الاجتماعية والتّاريخية، أما الفئة الثانية فقد اختارت خطابا أيديولوجيا طابعه الحداثة ودعوته الانفتاح والتّحرر من قيود الأعراف والقيم، فاتّخذ من السرد أداة للمساءلة والقلق الدائم، وقد كانت أولى اهتماماته مناقشة الهوية والذاكرة الجماعية والأحداث التّاريخية وهو إذ ذاك تعامل إزاء مسألة الهوية كفضاء ديناميكي مفتوح ومتجدد، يتجدد من خلال الحوار والتعايش مع الآخر بل والاندماج معه (مبدأ الذاكرة المشتركة)، وبهذا المعنى يكشف الخطاب الأدبي الجزائري الرّاهن عن جدلية عميقة بين نزعة التشبث بالذات الوطنية وبين نزعة الانفتاح ودعوات التحرر والانعتاق، وفي كل الأحوال تثري هذه الجدلية –حسب رأينا- المشهد الأدبي وتُبرز تعددية الرؤى حول معنى الانتماء وحدود الهوية،

كذلك تدفع بالنقد الجزائري إلى فتح آفاق أكثر للبحث في هذه المساءل الجادة والعميقة التي من شأنها -عبر الممارسة النقدية الهادفة- إنشاء نظام خطابي جزائري يدعو إلى ضرورة أدلجة الخطاب الجزائري في ظل الصراعات الفكرية والهوياتية التي يشهدها العالم.

خاتمة:

تكشف دراسة التمثّلات الأيديولوجية للهوية الوطنية في الخطاب الروائي الجزائري عن حضورٍ محوريٍّ للثورة، لا باعتبارها حدثًا تاريخيًا منغلقًا في زمنه، بل بوصفها مكونًا أيديولوجيًا مفتوحًا يتجاوز حدود السياسة إلى فضاءات الفكر والثقافة. فالثورة في المتن الروائي الجزائري تتحول إلى رمزٍ تأسيسيٍّ للوعي الجمعي، وإلى مرجعية فكرية يستمد منها الكاتب والرواية معًا شرعية المقاومة وإرادة الاستمرار، وتبرز الأيديولوجيا في هذا السياق بوصفها شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية، إذ يتخذها الخطاب الروائي وسيلةً لمساءلة الذات والتاريخ، ولمواجهة مختلف أشكال التهميش والنسيان التي قد تطال الذاكرة الوطنية. فالرواية الجزائرية لا تكتفي بتوثيق الذاكرة، بل تعمل على إعادة كتابتها من منظور نقدي وإنساني، يجعل من فعل الكتابة ذاتا ممارسةً للمقاومة وتأكيدًا على الوجود.

وعليه، يمكن القول إنّ الخطاب الروائي الجزائري هو رحلة مفتوحة في البحث عن الهوية، رحلة تستند إلى الذاكرة كمصدرٍ للمقاومة والاستمرار، وتستعين بالتخييل كأداة لإعادة بناء الذات والواقع معًا.

وبناءً على هذه النتائج، توصي المداخلة بما يلي:

1- ضرورة ترسيخ الوعي النقدي بأدلجة الخطاب الثقافي الجزائري، باعتبارها خطوة أساسية نحو بناء منظومة فكرية وطنية مستقلة توازن بين الخصوصية والانفتاح.

2- تشجيع الدراسات النقدية المتعددة التخصصات التي تتناول العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا والهوية، من أجل قراءة أكثر شمولًا للخطاب الثقافي الجزائري.

3- العمل على توثيق وتحليل الذاكرة الأدبية الجزائرية بوصفها مكوّنًا أساسًا للهوية الوطنية، وضمان حضورها في مشاريع البحث والتعليم والثقافة.

الهوامش والإحالات:

01- - كريس باركر، معجم الدراسات الثّقافية، تر، جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2018، ص84

02- نفسه ص 85

03- نفسه ص 85

-04 سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر"من القراءة الجمالية إلى القراءة الثّقافية" دار ميم للنشر، ط 1، الجزائر، 2021 ص208
-05 محمد ديب، الدار الكبيرة، تر سامي الدروبي، دار الهلال، العدد 262، أكتوبر 1970، ص 14
-06 سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي، ص 208
-07 نفسه، ص 208
-08 رشيد بوجدرة، الحلزون العنيد، تر، هشام القروي، منشورات ANEP، ط2، الجزائر 2002 ص23
-09 ليندا هاتشون، شعرية ما بعد الحداثة (التاريخ، النظرية، المتخيل) تر، السيد إمام، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة 2024، 263
-10 كريس باركر، معجم الدراسات الثّقافية، ص 385
-11 ليندا هاتشون، شعرية ما بعد الحداثة (التاريخ، النظرية، المتخيل)، ص
-12 263
-13 أحمد طيباوي، اختفاء السيد لا أحد، منشورات ضفاف والاختلاف، ط1، لبنان 2019 ، ص05
-14 نفسه، ص 13
-15 كريس باركر، معجم الدراسات الثّقافية، ص 382
-16 سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي، ص 209
-17 كريس باركر، معجم الدراسات الثّقافية، ص 84
-18 الطّهار مرابعي، خريف تيلّة، ط1، دار ميم للنشر والتوزيع، الجزائر 2021، ص48
-19 نفسه، ص 48